التشكلات الدلالية للخوف
في شعر أبي فراس الحمداني

د / زكية بنت عوض الحارثي

قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب
جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية

التشكلات الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني

زكية بنت عوض الحارثي

قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب -جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : zakiaawad@gmail.com

الملخص:

هدف البحث إلى معرفة مفهوم الخوف وأشكاله وثقافته، والكشف عن تشكيل ثقافة الخوف عند أبي فراس الحمداني، والكشف عن سريان الحركة الدلالية للخوف في شعر أبي فراس، وهدف أيضا في الكشف عن دور المتعاليات النصية في ترسيم دلالة الخوف في شعر أبي فراس؛ تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي في البحث؛ ومن أبرز نتائج البحث أن الخوف يمثل فعلا طبيعيا في سلوك الكائن الحي عامة والإنسان خاصة؛ وأن ثقافة الخوف تختلف من شخص إلى آخر؛ إذ يتمثل مناخ الخوف في المثيرات التي يبثها بعض أفراد المجتمع في نفوس العامة لتحقيق أهدافهم، أو تلك التي تثيرها النفس البشرية داخلها نتيجة القلق من مثير ما؛ ومن نتائج البحث أيضا أن دلالة الخوف في شعر أبي فراس الحمداني تتشكّل من خمسة مثيرات طبيعية، هي، الخوف من الحسد، والخوف من غدر قومه، والخوف من العار الذي قد يلاحقه، والخوف من البقاء في الأسر حتى الموت بعيدا عن أهله ووطنه، والخوف من هجر الحبيبة وتنكرها. وتبدو التشكلات الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني خفية؛ إذ لا تظهر من القراءة الأولى، وإنما تحتاج إلى إمعان النظر في البنية العميقة للنص، وتتبع صورة الخوف في العلاقات اللغوية داخله، فالصورة الكلية تعكس منظر الفارس الشجاع الجسور الذي لا يهاب الأعداء ولا يخشى الردى، بيد أن الصور الجزئية تعكس الحالة النفسية التي تعاني الخوف وتتلاشى مواجهة مثيراته.

كلمات مفتاحية: التشكلات الدلالية- الخوف- شعر- أبي فراس الحمداني.

Semantic formations of fear in the poetry of Abu Firas al-Hamdani

Zakia bint Awad Al-Harthy

Department of Arabic Language and Literature - College of Arts - King Saud University - Kingdom of Saudi Arabia

Email : zakiaawad@ gmail.com

Abstract

The aim of the research is to know the concept of fear, its forms and its culture, to reveal the formation of the culture of fear, according to Abu Firas al-Hamdani, to reveal the validity of the semantic movement of fear in Abu Firas's poetry, and also to reveal the role of textual transcendents in delineating the connotation of fear, in Abu Firas's poetry The descriptive analytical approach was used in the research. Among the most prominent results of the research is that fear represents a natural act on the behavior of the living being in general, and the human being in particular And that the culture of fear differs from one person to another. The climate of fear is represented in the stimuli that some members of society spread in the hearts of the public in order to achieve their goals, or those that the human psyche provokes within it, as a result of anxiety about a stimulus. Among the results of the research also is that the significance of fear in the poetry of Abu Firas al-Hamdani consists of five natural stimuli: fear of envy, fear of treachery of his people, fear of shame that may follow him, fear of staying in captivity until death away from his family and his homeland, and fear Who deserted the beloved and denies it. In the poetry of Abu Firas al-Hamdani, the semantic formations of fear appear hidden. It does not appear from the first reading, but rather needs to be carefully examined in the deep structure of the text, and to follow the image of fear, in the linguistic relations within it, as the overall picture reflects the look of a brave and daring knight, who does not fear enemies and is not afraid of evil, but the partial pictures reflect the psychological state , Which suffers fear, and vanishes facing its triggers.

KeyWords: Semantic Formation - Fear - Poetry - Abu Firas Al-Hamdani.

مقدمة

يمثل الخوف حالة طبيعية في وجدان الكائن الحي عامة على مختلف أجناسه، وهو سجية سوية في الجنس البشري خاصة، وعامل مشترك بين أفراده مهما تباينت مفاهيمه وأشكاله ومثيرات استجابته من شخص لآخر. بيد أنه يُصنف ضمن الانفعالات اللاإرادية التي ينفر الإنسان من استظهارها، ويستهجنها المجتمع.

ويعد البحث في الخوف كظاهرة في شعر أبي فراس الحمداني ضربا من المشاكسات الأدبية؛ فمبادئ الفروسية تتنافى مع خُلق الخوف واستظهاره، يعززه نشأته في أسرة معروفة بالشجاعة، إذ "اتصف جده حمدان بالشجاعة والكرم، واحتل عمه عبدالله، والد سيف الدولة، بلاد الموصل"[١]، ومن هذه الشجاعة وهذا السؤدد تغذت سجايا شاعرنا؛ فـ "سجل على الروم نصرا بعد نصر، وخرّت الحصون الواحد بعد الآخر. وكان حينا يقود فيالق العرب، فيحرق المدن ويسبي النساء، ويأسر الرجال"[٢]، وحفل شعره بصولاته وجولاته، كما حفى بانتصاراته ومفاخراته. ولهذا يمكننا –بالكاد– أن نشم رائحة الخوف في شعره، وإذا تتبعنا مصدرها، وجدناها نابعة عن أبي فراس الإنسان لا أبي فراس الفارس المقدام. فثقافة الخوف لديه يمثلها تعريف الغزالي: "الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال."[٣]

ويتشكل الخوف في شعر أبي فراس الحمداني من دلالات تفرزها مثيرات نفسية تتمثل في الخوف من الحسد، ولحاقه العار، والبقاء أو الموت

١) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح الدكتور خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م، ص٨.

٢) السابق، ص٨.

٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨م، ١٩٠/٤.

في الأسر، والخوف من غدر قومه، والخوف من هجر الحبيبة. ويمكن تمثل هذه التشكلات في الشكل التالي:

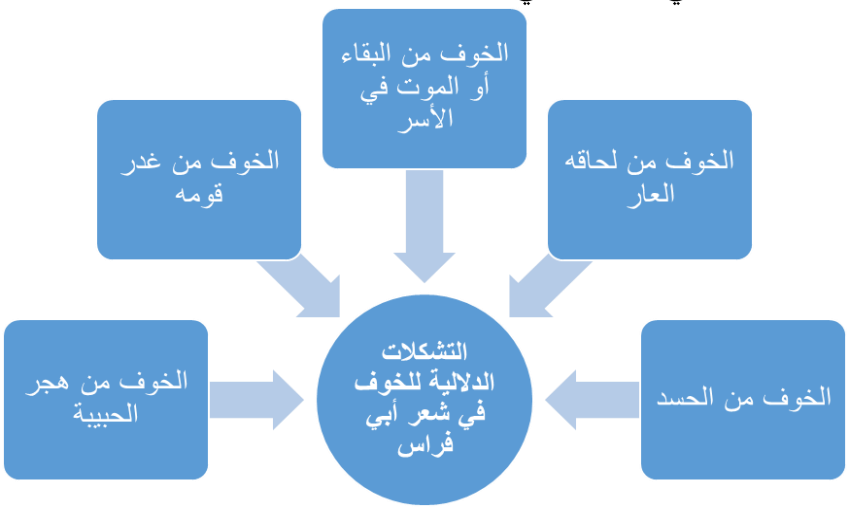

استقرت هذه الدراسة على عنوان (التشكلات الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني)، مثيرة عدة تساؤلات، هي:

١-ما مفهوم الخوف؟ وما أشكاله؟ وما ثقافته؟

٢-كيف تشكلت ثقافة الخوف عند أبي فراس الحمداني؟

٣-كيف سارت الحركة الدلالية للخوف في شعر أبي فراس؟

٤- ما دور المتعاليات النصية في ترسيم دلالة الخوف في شعر أبي فراس؟

اتخذت هذه الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي مسلكا لدراسة هذه الظاهرة، ورصد تشكلاتها الدلالية، والكشف عن دور المتعاليات النصية في التشكلات الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني. كما فرضت طبيعتها أن تأتي في خطة قوامها: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، بيانها كالتالي:

١-**المقدمة**، وفيها أبجديات البحث، ومنهجه، وخريطته.

٢- **التمهيد**، وتناول مفهوم الخوف، وأشكاله، وثقافته.

٣-**المبحث الأول**: مثيرات الخوف في شعر أبي فراس الحمداني. ناقش المثيرات الانفعالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني، ومصادرها، وأنماطها.

٤-**المبحث الثاني**: الحركة الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني. عرض للحركة الدلالية لمسار الخوف عند أبي فراس، ودور المتعاليات النصية تَشَكُّلِه.

٥-**الخاتمة**، وفيها نتائج البحث، وما توصلت إليه هذه الدراسة.

التمهيد

يتشابه مفهوم الخوف لغة مع مفهومه الاصطلاحي إلى حد كبير؛ إذ يعرف الخوف لغة بـ "الفزع، خافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة... وخوّف الرجل إذا جعل فيه الخوف، وخوفته: إذا جعلته يخاف الناس. ابن سيده: وخوف الرجل جعل الناس يخافونه. وفي التنزيل العزيز: إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه"؛ أي يجعلكم تخافون أولياءه"(١)

وفي الاصطلاح، يختلف مفهوم الخوف باختلاف أسبابه؛ فيعرفه الإمام الغزالي بأنه "تألم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال"(٢)؛ فربط التعريف بأسباب الخوف وآثاره، من تألم القلب وقلقه من تخوفات المستقبل، وتوقع مكروهاته. وذهب القوصي إلى مثل ذلك؛ فعرفه بأنه "حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الفرد في بعض المواقف، ويسلك فيها سلوكا يحاول به الابتعاد عن مصدر الضرر"(٣)، إذ الخوف يتولد من الإحساس بالخطر، والذي ينعكس لا إراديا على السلوك، فيدفع صاحبه إلى الابتعاد عن مصدر هذا الخطر. وإذا كان القوصي ربط الخوف بالمؤثرات الداخلية، فإن إبراهيم وجيه ربطه بالمؤثرات الخارجية؛ فذهب إلى أن الخوف "ينشأ نتيجة لمؤثرات خارجية معينة، فليس عند الكائن الحي دوافع فطرية تدفعه للخوف"(٤)، ويعني هذا أن إحساس الخوف ناتج عن شعور المرء بالخطر المهدد له من الخارج، وإلى مثل ذلك ذهب أسعد رزق في تعريفه الخوف بأنه "أحد الانفعالات البدائية العنيفة، يتملك المرء فيشله عن الحركة ويخمد نشاطه، ويتصف الخوف بحدوث تغيرات واسعة المدى في الجسم، كما

---

١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، مج٩٩/٩ (مادة: خوف).

٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، يتخريج الإمام الحافظ العراقي، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨م، ١٩٠/٤.

٣) عبدالعزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٣٢٩

٤) إبراهيم وجيه محمود: مدخل إلى علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٥٠.

يتصف بسلوك لدى الشخص قوامه الهرب أو الفرار أمام المثير الخارجي"[١]، فالخوف بهذا المفهوم فطرة في الإنسان تجاه المؤثرات الشرورية الخارجية، وقد يكون طابعا مكتسبا كذلك. وذهب الراغب الأصفهاني إلى مفهوم أوسع، فعرف الخوف بأنه "توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة"[٢]، فقصد بالمظنون تخوفات المستقبل وقلقه المتوقع من حدوث مكروه تخافه النفس، وقصد بالمعلوم مكروهات الماضي والحاضر، فكأنه جمع كل الفزع في هذا التعريف متغاضيا عن أسبابه ومصادره.

•أشكال الخوف ومصادره:

يمكننا من خلال التعريفات السابقة استنباط أشكال الخوف وأنواعه؛ إذ نستطيع تقسيم الخوف إلى طبيعي ومرضي، ولكلٍ مصادره التي تغذيه، والتي يمكن إجمالها في ثلاثة مصادر، هي:

يمثل الخوف الطبيعي عاملا مشتركا بين الكائنات الحية؛ فهو حالة طبيعية رغم اختلاف طرق الاستجابة له من كائن لآخر، ورغم اختلاف المواقف والمثيرات التي تهدد الكائن الحي، وتدفعه إلى تجنب مصادره وأضراره، كالخوف من السِّباع والزواحف السامة، والخوف من العدو،

١) أسعد رزق: موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٢٨.
٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ١٦١/١.

والخوف من الموت أو المرض، والخوف من زوال النعم، أو الخوف من الفشل، أو الخوف من المجهول.. وغير ذلك من المثيرات. بينما يتفرد الجنس البشري بالخوف غير الطبيعي، أو ما يمكن تسميته بالخوف المرضي، أو الفوبيا، هذا النوع من الخوف يتفاوت من شخص إلى آخر، بيد أنه إن تملك من الشخص سيطر عليه، حتى يعجز عن السيطرة على مخاوفه أو ضبط انفعالاته، ومن ثم يؤثر في سلوكه العام، وينعكس على إدراكه للواقع؛ فيعطل طاقته، وسلوكه الاجتماعي؛ فيعيش منعزلا خائفا، لا يستطيع التعبير عن رأيه، ولا يقوى على مشاركة الآخرين آرائهم وأفعالهم؛ فـ "الخوف المرضي المزمن (الفوبيا) عموما يعطل الفرد وطاقاته في مجال السلوك الاجتماعي، فيجعله منعزلا خائفا، لا يشارك الآخرين ولا يستطيع التعبير عن نفسه، كما يصبح أداؤه في المواقف المختلفة أقل من طاقاته وقدراته، إضافة إلى ذلك، فإن المعاناة الشخصية كبيرة، والمصاب به يتألم من خوفه وقلقه ونقصه، وقد يصاب بالاكتئاب"[١] ومن أمثلة ذلك النوع من الخوف: فوبيا المرتفعات، وفوبيا الأماكن المغلقة، وفوبيا الأماكن المفتوحة، وفوبيا الظلام، وفوبيا الماء..

•ثقافة الخوف:

تعرف ثقافة الخوف أو مناخ الخوف بتلك المثيرات المخيفة التي يبثها بعض أفراد المجتمع في نفوس العامة لتحقيق أهدافهم، أو تلك التي تثيرها النفس البشرية داخلها نتيجة القلق تجاه مثير ما، وتتنوع هذه المثيرات من سياسية واقتصادية ودينية ونفسية... .

يتواجد الخوف في النفس البشرية مع ميلادها، وينشأ منذ الطفولة في البيئات التي تصنعه، ويصبح الخوف ثقافة في المجتمعات التي تمارسه تجاه أفرادها؛ إذ تزدهر صناعة التخويف من الداخل بفعل سلطة الوطن، ومن

١) أحمد محمد عبدالخالق: أسس علم النفس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١٩٨٩م، ص٦٤٥.

الخارج بفعل سلطة العدو، ويعمل المجتمع على نموه، فينتج فردا مضطربا غير قادر على الدفاع عن نفسه، يتلاشى مواجهة المخاطر، ويحبذ الاستسلام والجبن عن المواجهة والشجاعة، ومن ثم يتجنب المواقف التي تخيفه، وعليه يبتعد الفرد الخائف عن الإنجاز بكامل طاقته، وعن البهجة في الحياة بشتى سبلها، وتصبح الحياة مريرة في ظل غياب الراحة، وحضور الاضطراب والتوتر، وهو ما يولد شعورا بعدم الكفاءة يعوق حياته.

تتمحور ثقافة الخوف في شعر أبي فراس الحمداني في محورين رئيسين، أحدهما خارجي، والآخر داخلي، فالأول تمثله السلطة القومية متمثلة في عمومته العرب، وخوفه من غدرهم، وحسدهم، كما تمثله السلطة السياسية متمثلة في خوفه من أخواله الروم من ناحية، ومن تجاهل سيف الدولة مطلبه، وتوانيه في فك أسره، وتخوفه من بقائه وموته أسيرا نائيا عن وطنه وأهله من ناحية أخرى، يقول:

إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومِ خُطَّةً * تَخَوَّفْت مِنْ أَعْمَامِي العُرْبِ أَرْبَعَا**
وَإِنْ أَوْجَعَتْنِي مِنْ أَعَادِيَّ شِيمَةٌ * لَقِيتُ مِنَ الأَحْبابِ أَدْهَى وَأَوْجَعَا**[1]

وتمثل المحور الثاني، السلطة النفسية؛ حيث الخوف من هجر الحبيبة، ومن العار الذي يمثل شبحا مخيفا يطارده من حين إلى آخر. بيد أن المخاوف الخارجية تتفوق نسبيا على الداخلية، وهو مؤشر متوقع؛ فـ"المدركات الحسية أقوى من المدركات المعنوية، وتشكل تأثيرا نفسيا عبر الانفعال المناسب للتصورات الذهنية والحسية على حد سواء"[2]، ويمكن تصور هذه الثقافة من خلال المخطط التالي:

١) الديوان، ص٢٠٩.

٢) عبدالقادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٢٠.

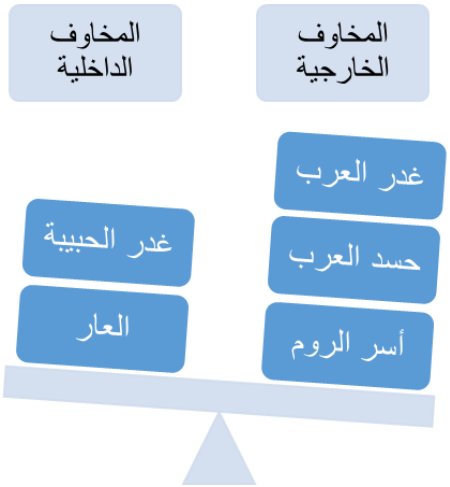

تتبلور ثقافة الخوف كطابع نفسي في التوجهات الداخلية والخارجية التي من شأنها أن تثير في النفس البشرية مشاعر الرهبة والفزع، وأثر ذلك في توجيه المتأثر للتعامل مع هذا المثير الانفعالي، فهناك موقف مفزع ورد فعل لهذا الموقف وأداة معبرة عنه.

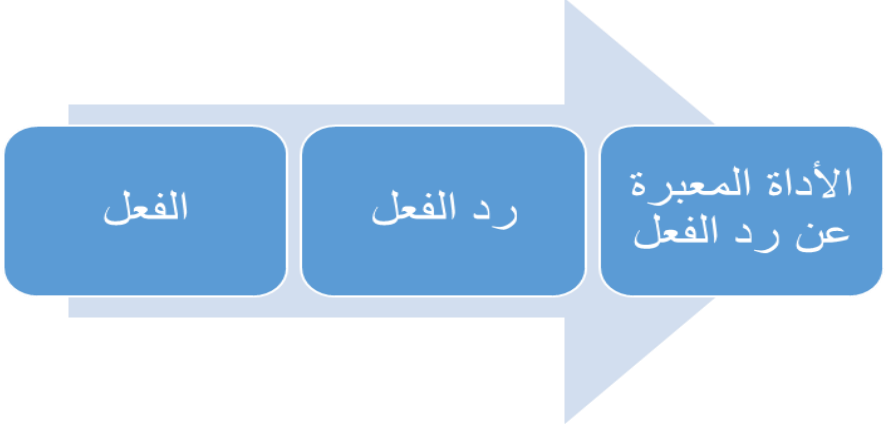

تتشكل ثقافة الخوف في الفعل وفقا لما تلعبه المؤثرات الداخلية والخارجية في تكوينه وتوجيهه، وبناء عليه يتشكل رد الفعل، وتختلف الأداة باختلاف طبيعة الفعل وشكله؛ فلو افترضنا خوف الفريسة من الأسد فعلا، فإن الحذر وتلمس النجاة رد لهذا الفعل، في حين يعد الركض والفرار أداة لرد الفعل، وقياسا عليه فإن خوف شاعر كأبي فراس، من البقاء والموت في

الأسر فعل، واستجداءه واستعطافه سيف الدولة الحمداني رد لهذا الفعل، في حين تعد أشعاره في هذا المجال أداة معبرة عن رد هذا الفعل.

يمكننا تتبع ثقافة الخوف في شعر أبي فراس من خلال حياته النفسية والاجتماعية؛ إذ تلعب المكانة الباذخة التي تبوءها دورا كبيرا في تشكيل ثقافة الخوف لديه؛ فهو فارس شجاع، طويل البنية، يقول: (من الطويل)

مَتَى تَخْلُفُ الأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتىً * طَوِيلَ نِجادِ السَّيْفِ، رَحْبَ الْمُقَلَّدِ**

مَتَى تَلِدُ الأَيَّامُ مِثْلِي لكُمْ فَتًى * شَدِيدًا عَلَى البَأْسَاءِ غَيْرَ مُلَهَّدِ**(١)

عاش أبو فراس صلبا أبيا، يرفض الضيم، وينأى بنفسه عن الذل والصغار، لا يتطلع إلى ما في يد غيره، يقول: (من الكامل)

وَأَنا ابْنُ مَنْ شادَ المَكارِمَ، وَابْتَنَى * خُطَطَ الْمَعالِي، حيثُ حَلَّ الفَرْقَدُ**

وَأَنا الْذِي عَلِمَ الأَنَامُ بِأَنَّهُ * لَمْ يَنْمِهِ إِلَّا كَرِيمٌ سَيِّدُ**(٢)

ونال حظه من الدنيا، حتى قنع بما نال، يقول: (من البسيط)

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا دَائِمًا أَبَدا * أَعْطَانِيَ الدَّهْرُ مَا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدَا**(٣)

هذه الشيم، وتلك الصفات تقف حاجزا منيعا أمام الخوف غير الطبيعي (الفوبيا)، ليتبقي الخوف الطبيعي منحسرا في جوانبه الخمسة التي تناولها البحث، وهي:

١- الخوف من الحسد.

٢-الخوف من العار.

٣-الخوف من الموت في الأسر.

٤-الخوف من غدر قومه.

٥-الخوف من هجر الحبيبة.

---

١) الديوان، ض٩٨.

٢) الديوان، ص٩١.

٣) الديوان، ص٨٧..

المبحث الأول: مثيرات الخوف في شعر أبي فراس الحمداني

•الخوف من الحسد:

يشكل الحسد مثيرا عاما للخوف بين أفراد الجنس البشري، متخطيا كل الحواجز؛ إذ يتخوفه كل ذي نعمة ونقمة على حد سواء؛ فكل أحد يظن أنه محسود، وهي حقيقة تنبه إليها الشعراء قبل أبي فراس، يقول عمر بن أبي ربيعة: (من الرمل)

حَسَدًا حُمِّلْنَهُ مِنْ شَأْنِها * وَقَدِيمًا كانَ في النَّاسِ الحَسَدْ**[١]

الحسد موجود في الناس وإن تعددت دوافعه، واختلفت مسبباته، وقد حذر القرآن الكريم من خطورة هذا الخلق الذميم في أكثر من شاهد، قال تعالى: "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله..."[٢]، وقال -جل شأنه-: "ومن شر حاسد إذا حسد"[٣]، فأسماه شرا؛ لما فيه من جلب الضر، ولما يحويه من اعتراض على قضاء الله وقدره.

صور أبو فراس الحمداني تخوفه من الحسد، كما صور الحاسد وخطره، يقول: (من الطويل)

رَمَتْنِي عُيُونُ النَّاسِ حَتَّى أَظُنُّهَا * سَتَحْسُدُنِي، فِي الحاسِدِينَ، الكَوَاكِبُ**

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا عَدُوًا مُحارِبًا * وآخَرَ خَيرٌ مِنْهُ عِنْدِي المُحَارِبُ**

ويَرْجُونَ إِحْرَازَ العُلا بِنُفوسِهِمْ * وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ المَعَالِي مَوَاهِبُ**

فَكَمْ يُطْفِئونَ المَجْدَ واللهُ مُوقِدٌ * وكَمْ يَنْقُصُونَ الفَضْلَ واللهُ وَاهِبُ!**[٤]

إن الإحساس بأعين الناس مسألة ملازمة للنفس البشرية، لا يمكن التخلي عنها أو تكذيبها، سواء كانت نظراتهم محل إعجاب أو استهجان أو حسد، لاسيما وإن كان شاعر فارس كأبي فراس، فلا عجب أن يكون محط

١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٠٦.
٢) سورة النساء، الآية ٥٤.
٣) سورة الفلق، الآية ٥.
٤) الديوان، ص٤١.

أنظار الناس، بيد أن هذه النظرات تحمل دلالة الحسد أكثر من مجرد الإعجاب؛ يفسر ذلك ما تكنه نفوسهم من عداوة، فكأنهم العدو المحارب أو ألد عداوة وأشد خطرا منه؛ إذ إن العدو المحارب يُرى، وعداوته ظاهرة، في حين يضمر الحاسد حسده وحقده.

يظن الحاسد أن المجد سهل المنال، يحرزه كل أحد، ولا يعلم أن المجد والمعالي مواهب من الله –عز وجل– ألا يعلم هؤلاء الحسّاد خطورة حسدهم الذي يكاد يزيل ما أحرزه من مجد ورفعة، لكن الله واهب فضله من يشاء.

إن الخوف من الحسد شعور ملازم لأبي فراس، يصاحبه رد فعل متمثل في ضرورة مجاهدة الحاسد ودفع أذاه بكل السبل وشتى الطرق، وهذه المجاهدة ليست بالأمر الهين السهل؛ فهي تحتاج إلى جهد عظيم؛ إذ إرضاء الحاسد شيء مستحيل، يقول: (من الطويل)

لِمَنْ جَاهَدَ الحُسَّادَ أَجْرُ الْمُجَاهِدِ * وَأَعْجَزُ مَا حَاوَلْتَ، إِرْضَاءُ حَاسِدِ**

وَلَمْ أَرَ مِثْلِي الْيَوْمَ أَكْثَرَ حَاسِدًا * كَأَنَّ قُلُوبَ النَّاسِ لِي قَلْبُ وَاحِدِ**

أَلَمْ يَرَ هذا الدَّهْرُ غَيْرِي فَاضِلًا؟ * وَلَمْ يَظْفَرِ الحُسَّادُ قَبْلِي بِمَاجِدِ؟!**

أَرَى الغِلَّ مِنْ تَحْتِ النِّفَاقِ، وَأَجْتَنِي *** مِنَ العَسَلِ المَاذِي سُمَّ الأَسَاوِدِ[1]

يبدو الخوف من الحسد وما يضمره قلب الحاسد من حقد دفين عدوا يهدد حياة أبي فراس، ويؤرق مضجعه؛ لما تجلبه أعين الحساد من أضرار مجهولة، والإنسان مفطور على الخوف من المجهول، حذر من مخبئات الدهر وتقلباته، ولذا فإن رد الفعل يكمن في مجاهدة الحاسد ودرء كيده، وهذا النوع من الجهاد لا يقل جهدا وأجرا عن جهاد الأعداء، بل هو أصعب؛ فالعداوة معه تجعله أشد خصومة وأنكل حسدا، وفي المقابل، فإن استرضاءه

١) الديوان، ص٩٩.

واستمالته ضرب من المستحيل؛ إذ لا يقنع الحسود بغير زوال نعمة المحسود.

لقد تكالبت عليه أعين الحاسدين، حتى كأنه أوحد دهره فضلا ومنزلة، ويتعجب من هذه الحال؛ ألم يفز بالمجد سواه، فيحسده الناس؟!! لقد بلغ الخوف منه منزلة آلت به إلى الشك في كل صديق وعدو؛ مخافة أن يحسده، وبدا الحسد والحقد ظاهرا له في أعين من حوله، حتى تبدل ما كان يجده من معسول الكلام سما ناقعا شديد الفتك. إنه لم يغفل عن هؤلاء الحاسدين؛ فتخوفه جعله مستيقظا لأعينهم، يقول: (من الطويل)

وَيَا سَاهِدَ الْعَيْنَينِ فِيما يَرِيبُنِي * أَلَا إِنَّ طَرْفِي فِي الأَذَى غَيْرُ سَاهِدِ**

غَفَلْتُ عَنِ الحُسَّادِ مِنْ غَيْرِ غَفْلَةٍ * وَبِتُّ طَوِيلَ النَّوْمِ عَنْ غَيْرِ رَاقِدِ**(١)

يسهر الحاسد مشغولا بحسده، تؤرقه نار الحقد، ويقض مضجعه الفكر، وهو وإن كان متخوفا من هذا الحسد الذي يهدد عرش مجده، إلا إنه يبيت قرير العين في غير غفلة عن حسدهم. وربما تغافل عنهم لكنه لم يغفل عن كيدهم وسوء نواياهم.

تكون العداوة أشد خطرا، وأثقل في النفس عندما تكون من ذوي القربى والثقات من الأهل والعشيرة؛ إذ المؤمل فيهم أن يكونوا عونا للمرء على الشدائد، وسندا عند ملاقاة الخطوب، فإن أضمروا الحقد، وأظهروا الحسد ضاع المؤمل وفُقد المرتجى، يقول: (من الوافر)

"أيَا مَنْصُورُ" خَانَتْنِي ثِقَاتِي * فَمَهِّدْ لِي عَلَى الْعَدَوِيِّ سَرْجِي!**

"بَنُو حَمْدَانَ" حُسَّادِي، جَمِيعًا * فَمَا لِي لاَ أَزُورُ "بَنِي طُغْجِ"؟!**

أَحُجُّ إِلَيْهِمْ حَجَّ اعْتِضَادٍ * بِعَقْوَةِ عُمْرِهِمْ، فَيَبَرَّ حَجِّي**(٢)

١) الديوان، ص١٠٠.

٢) الديوان، ص٧٢.

بلغ خوف أبي فراس من الحسد أن أضحى يتوقعه من كل من حوله، حتى الثقات من بني حمدان، وعزم على الرحيل عنهم؛ هربا من شرر أعينهم، فها هو يأمر خادمه بأن يعد له فرسه شديد العدو؛ ليسعفه على سرعة الرحيل إلى الغريب. لقد وجد في بني طغج مأمنه من هذا الحسد، وهم الغرباء عنه، يستعين بهم فيعينوه في غير توان، ويقدمون له الحب والود بكل ما أوتوا من قوة، وما ملكوا من عزيمة في غير حسد ولا غل.

إن هذا الخوف ظل مسيطرا على أبي فراس، فأحاله إلى هارب يرجو الخلاص، ويلتمس النجاة من كل من حوله، وزرع في نفسه التوجس والخيفة من أقاربه المقربين، فشاب فخره ببني حمدان هجاء حسدهم، واستكثارهم عليه ما أحرزه من سؤدد وفروسية، واختلط أمنه بمؤانستهم خوفه من غدرهم، وهذا ما يتجلى لنا في الصفحات التالية.

•الخوف من غدر قومه:

يستعين المرء بقومه على نائبات الدهر، ويقوى بهم على عداء الأعداء، ولطالما كانوا محل فخر في القصيدة العربية، بيد أن الأمر مغاير لطبيعته عند أبي فراس؛ فقد كشفت له المحن حقيقة قومه، وأظهرت له نوايا غدرهم، كما كشفت حقدهم وحسدهم من قبل، يقول: (من الطويل)

تَمَنَّيْتُمُ أنْ تَفْقِدُونِي، وإنَّمَا * تَمَنَّيْتُمُ أنْ تَفْقِدُوا العِزَّ أصْيدَا**
أمَا أنَا أعْلَى مَنْ تَعُدُّونَ هِمَّةً؟ * وَإنْ كُنْتُ أدْنَى مَنْ تَعُدُّونَ مَوْلِدَا**
إلَى اللهِ، أشْكُو عُصْبَةً مِنْ عَشيرتِي * يُسِيئونَ لِي فِي القَولِ، غَيبًا وَمَشْهَدا**
وإنْ حَارَبوا كُنْتُ المِجَنَّ أمَامَهُمْ * وَإنْ ضَارَبُوا كُنْتُ المُهَنَّدَ وَاليَدَا**
وإنْ نَابَ خَطْبٌ، أوْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ، * جَعَلْتُ لَهُمْ نَفْسِي، وَمَا مَلَكَتْ فِدا**
يَوَدُّونَ أنْ لا يُبْصِرُونِي، سَفَاهَةً، * وَلَوْ غِبْتُ عَنْ أمْرٍ تَرَكْتُهُمُ سُدَى[1]**

١) الديوان، ص٨٥.

قد يبلغ الحقد من المرء مبلغا يتمنى به زوال نعمة من الـنعم، لكـن تمني زوال الرجال أمر غير طبيعي، ولاسيما إن كان الحقد واردا من ذوي القربى، وهو مؤشر خطير ومخيف؛ ينمّ عن غدرهم. لقد تمنى بعض بنـي حمدان فقدان أبا فراس، وهو المعروف من فرسانهم إذا ما آنسوا الفزع، إن شنّوا إلى الحرب غارة كان لهم الترس الذي يقـيهم الضـربات، والسـيف الهندي الذي يسدد الطعنات، وهو المتخايل المتكبر، يهرعون إليه إن حلّـت المصائب، وألمت الملمات، وهو أعلاهم همّة، وأكثرهم بـذلا وعونـا فـي السراء والضراء، وهم في غيابه غير نافعين لشيء لا لأنفسهم ولا لغيرهم، وفي المقابل يسيئون إليه القول حاضرا وغائبا، ويتحينون الفرصة للغدر به والتخلص منه؛ جهلا منهم وطيشا من سفهائهم. إن أصعب ما يمر بالإنسان أن يتبدل أمنه خوفا في موطن الأمن والطمأنينة، وأن يخيب ظنه في أمـن الوطن والعشيرة، وأن يجد العداء في موطن الحب والسكينة، يقـول: (مـن الطويل)

وَمَا كُلُّ أَنْصَارِي مِنَ النَّاسِ نَاصِرِي * وَلَا كُلُّ أَعْضَادِي مِنَ النَّاسِ عَاضِـدِي**

وَهَلْ نَافِعِي إِنْ عَضَّنِي الدَّهْرُ مُفْرَدًا * إِذَا كَانَ لِي قَـوْمٌ طِـوَالُ السَّـوَاعِدِ؟**

وَهَلْ أَنَا مَسْـــرُورٌ بِقُرْبِ أَقَارِبِي * إِذَا كَانَ لِي مِنْهُمْ قُلُـوبُ الأَبَاعِـدِ؟**[1]

على المرء ألا يغتر بكثرة الجموع حوله؛ فالصادقون المخلصون منهم قليل، والنافعون المعينون على نوائب الدهر منهم قلّة تكشف عنهم الشـدائد ويمحصهم الدهر. وهي حقيقة عانى منها كثير من الشعراء، يقول محمد بن حازم الباهلي: (من الوافر)

بَلَوْتُ النَّاسَ مُذْ خَمْسِينَ عامًـا * وَحَسْـبُكَ بِـالمُجرِّبِ مِـنْ عَلِـيمِ**

فَمَا أَحَـدٌ يُعَـدُّ لِيـوْمِ خَـيْرٍ * ولا أَحَـدٌ يَعُـودُ عَلَـى حَمِـيمِ**

ويُعْجِبُنِي الفَتَـى وَأَظُـنُّ خَيْـرًا * فَأَكْشِفُ مِنْهُ عَنْ رَجُـلٍ لَئِـيمِ**[2]

---

١) الديوان، ص١٠٠.

٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي، جمع وتحقيق وشرح: مناور محمد الطويل، دار الجيل، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٣١.

فالناس متقلبون في الغدر –إلا من رحم ربي– لا يدوم وفاؤهم، تكشف زيف أخلاقهم الشدائد. لقد عاني أبو فراس غدر المقربين، ووجد في كثرتهم قلة الرجاء وندرة الوفاء، وإذ لم يكن من هذه الكثرة فائدة ترتجى، فليحفظوا ما تبقى من أواصر القربى، ويكفوا أذاهم عنه، لا أن ينقلب قـــربهم بعـــدا، ومودتهم عداء، وأمنهم خوفا. يقول: (من الطويل)

أَيَا قَوْمَنَا لا تُنْشِبُوا الحَرْبَ بَيْنَنَا * أَيَا قَوْمَنَا لَا تَقْطَعُـــوا اليَـــدَ بِاليَـــدِ**

فيَا لَيْتَ دَانِي الرَّحْمِ بَيْنِـــــي وبَيْنَكُمْ * إِذَا لَمْ يُقَـــــرِّبْ بَيْنَنَـــا لَـــمْ يُبْعِّـــدِ**

"عَدَاوَةُ ذِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً * عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ"**[1]

قاسى أبو فراس كثيرا من غدر قومه، وكثرت مخاوفه من خذلانهم وغدرهم، لاسيما من سيف الدولة، وهو أقربه إليه مكانة وأعلاهم منزلة؛ لقد قصد "ابن بوية الديلمي" الأمير "ناصر الدولة" في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فانصرف إلى "نصيبين"، وكاتب الأمير "سيف الدولة" في الانحدار للاجتماع على التدبير فيه، فأقام أياما حتى استعد، وأخذ الأهبة وسار إلى الرقة، وقد أصلح الأمير "ناصر الدولة" بينه وبين سلطانه، ووجد من تأخير "سيف الدولة" المسير في تلك الأيام، وتوجه إلى الأعمال التي له "بديار بكر" وبسط أيدي الرجال فيها، وأشرفت الحرب على الشروق[2] بين بني العشيرة الواحدة، وهب أبو فراس صارخا في قومه؛ يثنيهم عن هذه الحرب التي ستقضي على آخر ما تبقى من رائحة القرابة، محذرا إياهم من قطع حبل الوصال.

وإذ لم يكن من رابط القرابة وداني الرحم نفع يرتجى، فلا يكن البعد والعداوة؛ فظلم الأقرباء شديد على النفس كوقع الحسام، وعداوتهم أشد إيلاما من ضرب السيف الهندي.

---

١) الديوان، ص١٠٥.

٢) الديوان، ص١٠٤–١٠٥.

إن الشعور بالأمن والحماية في ظل الأهل والأقارب أمر طبيعي، وعليه يكون ارتباط المرء بوطنه وحبه له، وإذا لمس فيمن حوله من عامة الناس الغدر والظلم فقد يتحمله وإن كان مؤلما، لكن ظلم ذوي القربي أشد؛ لأنه غير متوقع، وغير محتمل. لقد استأنس أبو فراس ببيت طرفة بن العبد في البيت الأخير؛ تأكيدا على شدة ما يعانيه من غدرهم وظلمهم. لقد عاني من هذا الغدر كما عاني منه لشعراء قبله، يقول أبو تمام: (من الكامل)

مَا هَذِهِ القُرْبَى التي لا تُصْطَفَى؟ * مَا هَذِهِ الرَّحِمُ الَّتي لا تَرْحَمُ؟**[١]

ويقول علي بن الجهم: (من الطويل)

وَلَم أَرَ أَعْدى لامْرِئٍ مِنْ قَرَابَةٍ * وَلاسِيَّما إنْ كانَ جَارًا أو ابْنَمَا**[٢]

إن هذا الخوف من الأقارب ناتج عن قسوتهم وغدرهم وخذلانهم لـــه، ولقد بدت ظنونه يقينا، وتخوفاته حقيقة في محنة الأسر؛ فقد مكث في أرض الروم عامين لم ير متصنعا للود، ولا ضامرا لحسد، ولا مظهرا لحقد، وهم العدو والخصم. لم يشغله خوف الأسر قدر ما شغله غدر قومـــه وأحبابـــه، يقول: (من الطويل)

أَمَا صَاحِبٌ فَرْدٌ يَــدُومُ وَفَــاؤُهُ!	*******	**فَيُصْفِي لِمَنْ أَصْفَى ويَرْعَى لِمَنْ رَعَى؟**
أَفِي كُلِّ دَارٍ لِــي صَــدِيقٌ أَوَدُّهُ	*******	**إِذَا مَــا تَفَرَّقْنَــا حَفِظْــتُ وَضَــيَّعَا**
أَقَمْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ عَــامَيْنِ لا أَرَى	*******	**مِنَ النَّاسِ مَحْزُونًا وَلَــا مُتَصَــنِّعَا**
إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومِ خُطَّةً	*******	**تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي العُرْبِ أَرْبَعَــا**
وَإِنْ أَوْجَعَتْنِي مِنْ أَعَادِي شِيمَةٌ	*******	**لَقِيتُ مِنَ الأَحْبَابِ أَدْهَى وَأَوْجَعَــا**[٣]

١) ديوان أبي تمام، م.س، ١٩٩/٣.

٢) ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٢٠.

٣) الديوان، ص٢٠٩.

لقد فقد الثقة في الأهل والصحب؛ فلا صديق وفيّ يدوم وفاؤه، ولا خليل يدوم صفاؤه، يرعى مودتهم ويحفظ عهودهم، وهم -على كثرتهم- يغدرون به، ويترقبون موته أو زوال نعمته. لقد تملكه الخوف من كل قرابته، حتى بلغ خوفه من غدرهم أربعة أضعاف خوفه من بطش الروم وهو في قبضتهم أسيرا، فإنهم على بعد المسافة ألد خصاما وأشد عداء وأقرب للغدر من أعدائه الروم وهو حبيس في دارهم. وإذا كان هذا هو الحال مع المقربين من عشيرته وأعمامه العرب، فلا عجب أن يصحبه الخوف من غدر الدهر والناس، يقول: (من البسيط)

لِمَنْ أُعَاتِبُ؟ مَا لِي؟ أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ * قَدْ صَرَّحَ الدَّهْرُ لِي بِالْمَنْعِ والْيَــأْسِ**
أَبْغِي الْوَفَاءَ بِدَهْرٍ لاَ وَفَــاءَ بِــهِ * كَأَنِّنِي جَاهِلٌ بِالــدَّهْرِ وَالنَّــاسِ!**[1]

في هذا الجو المشحون بالخوف، الخوف من الدهر وتقلباته وما يخبئه من أحداث مجهولة، وما يصحبه من قلق وذعر، والخوف من الأقارب غدرهم وحسدهم وتآمرهم، لم يبق مأمن يركن إليه أبو فراس، ولا ركن يأوي إليه، فأحس بالوحدة في هذا الكون الموحش، ولم يعد العتاب مجدٍ (لمن لأُعاتب؟)، وبلغ شعوره بعدم الأمن أن ملّ الحياة والأحياء (ما لي؟ أين يُذهب بي؟)، وتصدعت ثقته في كل من حوله، وفقد أمله في الحياة وفي الإقبال عليها، وتملكه اليأس والتشاؤم (قد صرح الدهر لي بالمنع واليأس)، وقرّت في ذهنه فكرة غدر الدهر وأهله، كما محيت ثقته في نفسه والناس من حوله (كأني جاهل بالدهر والناس!). هذه الفلسفة أخذت نصيبها من شعر أبي فراس، كما أخذت نصيبها من الشعراء قبله؛ فالإحساس بالقهر واستمرارية الحذر من غدر الدهر والصحب ولّد يقينا في النفس الشاعرة بالخوف وفقدان الثقة والتوتر على مستويات عدة، يقول سعيد بن حميد:(من الخفيف)

فَمَا أَعْرِفُ الأَيَّامَ إلاَّ ذَمِيمَةً * ولا الدهرَ إلاَّ وهْوَ بِالثَّأْرِ طَالِبُ**[2]

١) الديوان، ص٢٠١.
٢) ديوان سعيد بن حميد، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧م، ٤٣/٤.

ويقول ابن الرومي: (من المنسرح)

هَـــلْ لامــــرِئٍ مِــــنْ أَمَــــانِ * مِـــنْ رَيْـــبِ هـــذا الزَّمَـــانِ**
أمْ هَـــلْ تَـــرى نَاجِيًـــا * مِـــنْ طَـــوَارِق الحَـــدثانِ**
مَـــا اثنـــانِ ســـيجتمعان * إلاّ ســـيفترِقَانِ**
قَـــرِينُ كـــلِّ قـــرِينٍ * يبـــينُ بعـــدَ اقتـــرانِ**
يُبْلِـــي الجَدِيـــدَ الجديـــدَا * نِ ثُـــمَّ مـــا يبليـــانِ[١]**

ويقول (ديك الجن): (من السريع)

والدَّهْرُ لا يَسْـلَمُ مِـنْ صَـرْفِهِ * أَعْصَـمُ فِـي القُنَّـةِ مُسْـتَوْعِلُ**
والدَّهْرُ لا يَسْـلَمُ مِـنْ صَـرْفِه * مُسَـرْبَلٌ بِالسَّـرْدِ مُسْتَبْسِـلُ**
والـدَّهْرُ لا يَحْجُبُـهُ مَـانِعٌ * يَحْجُبُـهُ العَامِـلُ والمُنْصُـلُ**
يُصْغِـي جَـدِيدَاهُ إلَى حُكْمِـهِ * ويَفْعَـلُ الـدَّهْرُ بِمَـا يَفْعَـلُ[٢]**

هاجس التنكر وقلة الوفاء شعور يسيطر على المرء في دنيا شابها الزيف والخداع والرياء، فكثير ما يشعر الإنسان بحب المحيطين به، لكن سرعان ما يتنكرون له ويغدرون به، وتؤدي هذه الثقافة إلى تخلخل المفاهيم الإنسانية عن الحياة والكون.

•الخوف من العار:

من مثيرات الخوف في شعر أبي فراس، خوفه من العار، وهو إحساس يطارد ذوي السلطة والمكانة؛ فالشك والوساوس تطارد الإنسان الناجح في الحياة، ولا تزال سهام الحقد والكراهية والغيرة تدفعه إلى خوف

١) ديوان ابن الرومي، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م، ٦٤١/٢.

٢) ديوان ديك الجن الحمصي، جمع وتحقيق ودراسة: مظهر الحجي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م، ص١٩٣-١٩٤.

الشماتة إذا حلت به مصيبة أو يلحقه العار جرّاء أدنى تقصير، وربما صحبه الخوف إلى تحمّل ما لايطيق، يقول: (من الطويل)

تَحَمَّلْتُ، خَوْفَ الْعَارِ، أَعْظَمَ خُطَّةٍ * وَأَمَّلْتُ نَصْرًا كَانَ غَيْرَ قَرِيبِ**
وللْعارِ خَلَّى رَبُّ "غَسَّانَ" مُلْكَهُ * وَفَارَقَ دِينَ اللهِ غَيْرَ مُصِيبِ**
وَلَمْ يَرْتَغِبْ فِي العَيْشِ "عِيسَى بْنُ مُصْعَبٍ * ولَا خَفَّ خَوْفَ الحَرْبِ قَلْبُ حَبِيبِ**
رَضِيْت لِنَفْسِي: "كَانَ غَيْرَ مُوَفَّقٍ * وَلَمْ تَرْضَ نَفْسِي: "كَانَ غَيْرَ نَجِيبِ"[1]**

حمله خوف العار على التجلد والصبر على ما لا يُطاق؛ أملا في نيل العلا وهو صعب المنال، وكم تحمل قبله ما هو أصعب من ذلك وأشد مرارا؛ فخوف العار شبح يطارد السلاطين على قوتهم ونفوذهم. لقد تنصّر "جبلة بن الأيهم"، ورفض أمر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وإن كان ندم على تنصّره فيما بعد، إلا أن شبح العار ظل يلاحقه خوفا من زوال ملكه. وهو نفس الشبح المخيف الذي دفع "عيسى بن مصعب" إلى الموت؛ فقد "روى ابن خالوية أن عيسى بن مصعب كان مع أبيه في حرب عبدالملك بن مروان، فلما أحسّ مصعب بالموت، قال له: انج بنفسك. فقال له: انج بنفسك. فقال عيسى له: والله ما كنت لأفارقك، وتقدم، فقاتل حتى قُتِل"[2]. فليس بعد الموت مصاب يتحمله الإنسان مخافة العار، ولذا فقد فضّل أبو فراس عدم التوفيق من اتهامه بعدم النجابة وكرامة الأصل. يقول: (من الوافر)

أَبَتْ لِي هِمَّتِي، وَغِرَارُ سَيْفِي، * وَعَزْمِي، وَالمَطِيَّةُ، وَالْقِفَارُ**
وَنَفْسٌ لاَ تُجَاوِرُها الدَّنَايَا * وَعِرْضٌ لَا يَرِفُّ عَلَيهِ عَارُ[3]**

---

١) الديوان، ص٥٤.
٢) الديوان، ص٥٤.
٣) الديوان، ص١٥٨.

تمتع أبو فراس الحمداني بنفس ذات همة متعالية، جمعت بين الفروسية والسيادة والفصاحة، واقترنت شجاعته بالعلا، فلا يقبل الدنايا، ولا يتهاون في الزود عن عرضه. تهون أمامه كل الشدائد حتى وإن كانت نفسه الأبية، ولا يهون عرضه وشرفه، ولذا فلا قيمة للمال ولا المنزلة الرفيعة إن اقترب شبح العار، يقول: (من الطويل)

وَمَا حَاجَتِي بِالمَالِ أَبْغِي وُفُورَهُ؟ * إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلا وَفَرَ الْـوَفْرُ**

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ، لَدَى الْوَغَى، * وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ، وَلَا رَبُّـهُ غَمْـرُ!**

وَلَكِن إِذَا حَمَّ القَضَاءُ علَى اِمْرِئٍ * فَلَيْسَ لَهُ بَـرٌّ يَقِيـه، وَلَـا بَحْـرُ!**

وَقَال أُصَيْحَابِي: الفِرَارُ أَوِ الـرَّدَى؟ * فَقُلْتُ: "هُمَـا أَمْرَانِ؛ أَحْلَاهُمَا مُرُّ"**

وَلَكِنِّي أَمْضِي، لِمَـا لا يَعِيبُنِـي * وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُما الأَسْـرُ**

يَقُولُونَ لِي: "بِعْتَ السَّلامَةَ بِالرَّدَى * فَقُلْتُ: "أَمَا وَاللهِ، مَا نَالَنِي خُسْـرُ"**

وَهَلْ يَتَجافَى عَنِّي المَوْتُ سَاعةٍ * إذا تَجَافَى عَنِّـي الأَسْـرُ وَالضُّـرُّ**

وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ الرَّدَى بِمَذَلَّـةٍ * كَما رَدَّها يَومًا بِسَوءَتِهِ "عَمْـرُو"**[1]

لا حاجة للمال وكثرته وادخاره إذ لم يكن العرض مصونٌ والكرامة باذخة؛ فالعار إن لصق بالرجال محا وافر المال، وبدد صرح العِرض والشرف. إنه لم يدخر جهدا ولم يتوان يوما عن صون العرض ودفع العار، حتى لقد تعرض للأسر وهو الفارس المغوار، حوله الجيش المدجج بالعدة والعتاد، ولكن للقضاء كلمته؛ فإذا قضى القدر على امرئ فلا مفر من قضائه ولا منجى من سيفه، بيد أنه ماضٍ في سبيله إلى بناء مجده لا يثنيه عنه أسر ولا قتل. لقد لاحقه لوم اللائمين، وتثبيط المثبطين؛ يثبطون همته العالية (بعت السلامة بالردى)، فما التفت إليهم، ولا انصاع لحديثهم (أما والله، ما نالني خسر)، وإذا كنت قبلت بطعم المرار في الأسر خشية العار من الفرار، فإنه ليس بأمر من طعم الموت في سبيل دفع الذل أو قبول العار، إنه لن يقبل

١) الديوان، ص١٦٥.

–بأي حال من الأحوال– أن يلبس العار، حتى وإن كان من بـاب الـدهاء ومكيدة الحرب، كتلك التي فعلها "عمرو بن العاص –رضي الله عنه–" لمّـا كشف سوءته وقت مبارزته لـ "علي بن أبي طالـب –كـرم الله وجهـه–" فاضطر الإمام "عليّ" إلى إشاحة وجهه؛ لأنه لم ينظر إلى سـوءته طـوال حياته.

إن قبول الموت في سبيل التخلص من العار مسـألة لا مـراء فيهـا ولا عودة عنها، لكن إذا كان هذا الموت من أجل آخرين تخلوا عنـه فـي ساعة العسرة، فإن ذلك من شأنه أن يوسع دائرة الإحسـاس بالغـدر. لقـد عرّض نفسه للأسر من أجل دفع العار عن بني حمدان قبل دفعه عن نفسه، وها هو في الأسر يستجدي "سيف الدولة" بسلطانه وقوته ليخلصه من أسره، فلا يستجيب.

•الخوف من البقاء والموت في الأسر:

الخوف من الموت أمر شائع بين أفراد الجنس البشري، فكل الناس يخافون الموت، قال تعالى: "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُم"(١). وتختلف فلسفة الخوف هنا عن نظيرتها عند الجنس البشري؛ إذ ليس المقصود هنا الخوف من ملاقاة الموت عامة، بل البقاء في الأسر حتى الموت، فحياة حافلة بالبطولات والمشاهد، مطرزة بالمجد والسؤدد، من العسير أن تكون نهايتها السجن والأسر حتى الموت، لاسيما وإن كان هذا الأسر فداء لغادر يمللك سبل الخلاص ولا يقدمها لهذا الأسير المكلوم.

إن مفهوم الموت هنا ينطبق عليه تعريف (هولتر) للموت بأنه: "استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المعتمد على التأمل أو توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت"(٢)، وإذا كان الموت غامضا ومجهولا في حالته العامة، فإنه لدى أبي فراس

١) سورة الجمعة، آية ٨. جاءت الآية الكريمة في سياق مخاطبة الذين هادوا؛ باعتبارهم أكثر الناس حرصا على الحياة، بيد أن الآية تعبر عن حقيقة إنسانية عامة، هي كراهية الموت والفرار منه.

٢) أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع١١١، مارس١٩٨٧م، ص٣٨.

معلوم، موت تسبقه آلام الوحدة والعزلة والغدر، ولذا فهو مخيف ومقلق أكثر مما سواه، يقول: (من الطويل)

دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ * لَدَيَّ، وَلِلنَّوْمِ الْقَلِيلِ الْمُشَرَّدِ**
وَمَا ذَاكَ بُخْلاً بِالْحَيَاةِ؛ وَإِنَّهَا * لأَوَّلُ مَبْذُولٍ لأَوَّلِ مُجْتَدِ**
وَمَا الأَسْرُ مِمَّا ضِقْتُ ذَرْعًا بِحَمْلِهِ؛ * وَمَا الْخَطْبُ مِمَّا أَنْ أَقُولَ لَهُ: قَدِ**
وَمَا زَلّ عَنِّي أنَّ شَخْصًا، مُعَرَّضًا * لِنُبْلِ العِدَى؛ إنْ لَمْ يُصَبْ؛ فَكَأنْ قَدِ**
وَلَسْتُ أُبالِي إنْ ظَفِرْتُ بِمَطْلَبٍ، * يَكُونُ رَخِيصًا، أوْ بِوَسْمٍ مُزَوَّدِ**
وَلَكِنَّنِي أَخْتَارُ مَوْتَ بَنِي أَبِي * عَلَى صَهَوَاتِ الخَيلِ، غَيرَ مُوَسَّدِ**
وَتَأْبَى وَآبَى أنْ أَمُوتَ، مُوَسَّدًا * بِأَيْدِي النَّصارَى، مَوْتَ أَكمَدَ، أَكْبَدِ**[1]

يتضافر شعور الخذلان مع شعور الغدر في توليد خوف البقاء في الأسر، فعلام البقاء؟! ولأجل من؟! لأجل من خذلوه وتخلوا عنه في محنته؟! أم لأجل من غدروا به وأنكروا فضله؟!

إنه لا يبالي بالأسر أو الموت بمفهومه العام(وما ذاك بُخلا بالحياة، وإنها لأوّلُ مبذول لأوّلِ طالب)، ولكن ما يخيفه هو الأسر والموت المعنوي، فنفسه الأبية ترفض الذل والخنوع، وتنكر الاستسلام للموت حيث لا وطن ولا صديق وافي. يخيفه الموت موسدا بأيدي الروم، بين قضبان سجونهم، وابن عمه (سيف الدولة) متمتع بسلطانه، خاذلا له، بعد أن قدم روحه فداء لسلطانه، ورفضا للعار؛ لقد "خرج (بودرس الأسطراطيغوس ابن مرديس البطريق) –وهو ابن أخت ملك الروم– في ألف فارس من الروم، إلى نواحي (منبج)، فصادف الأمير (أبا فراس) يتصيد في سبعين فارسا، فأراده أصحابه على الهزيمة، فأبى وثبت؛ مخافة العار والفرار، فأثخن بالجراح وأسر. وكان في مجلس الأمير (سيف الدولة) أخو (بودرس الأسطراطيغوس ابن مرديس البطريق) وكان أُسر هو وأبوه، يوم هُزم جده (الدمستق) بالحدث، فلما وقع (أبو فراس) في يد (بودرس) ابن أخت الملك، سامه إخراج أخيه، أو دفع فدائه، فكتب (أبو فراس) إلى (سيف الدولة) هذه القصيدة وغيرها

١) الديوان، ص٩٦.

يستميله لفدائه، بيد أن الأخير توانى في فك أسره وهو قادر عليه. يقول:

(من الطويل)

أُقَلِّبُ طَرْفِي بَيْنَ خِلٍّ مُكَبَّلٍ * وَبَيْنَ صَفِيٍ بالحَدِيدِ مُصَفَّدِ**

دَعَوْتُكَ، والأَبْوَابُ تُرْتَجُ دُونَنَا؛ * فَكُنْ خَيْرَ مَدْعُوٍ؛ وَأَكْرَمُ مُنْجِدِ**

أُنَادِيكَ لَا أَنِّي أَخَافُ مِنَ الرَّدَى * ولَا أَرْتَجِي تَأْخِيرَ يَومٍ إِلَى غَدِ**

ولَكِنْي أَنِفْتُ المَوْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ، * بِأَيْدِي النَّصارَى الْغُلْفِ مِيتَةَ أَكْمَدِ**

فَلا تَتْرُكِ الأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيَفْرَحُوا * وَلا تَقْطَعِ التَّسْآلَ عَنِّي، وَتَقْعُدِ**

وَلا تَقْعُدَنْ عَنِّي –وَقَدْ سِيمَ فِدْيَتِي– * فَلَسْتَ عَنِ الفِعْلِ الكَرِيمِ بِمُقْعَدِ**

فَإِنْ مُتُّ –بَعْدَ الْيَوْمِ– عَابَكَ مَهْلَكِي، * مَعَابَ الزُرَارِيِّينَ، مَهْلَكَ مَعْبَدِ**[1]

طال الانتظار في سجن (بودرس الرومي)، وبدأ الملل يتسلل إلى قلب الأسير، فيقلب بصره في وجوه من حوله، ما بين صديق مكبّل وآخر مصفد، ولابد من الإلحاح على سيف الدولة لفك هذا الأسر (دعوتك، والأبواب ترتج دوننا، فكن خير مدعو، وأكرم منجد)، مبينا أسباب هذا الإحاح؛ فلا الخوف من بطش الروم، ولا الخوف من الموت بين أيديهم هو الدافع لإلحاحه، ولكن نفسه الأبية تخشى الموت ذليلا في دار الغربة بعيدا عن الأهل والوطن، فحق له أن يلقى ميتة تليق بالفارس الأمير.

(من الطويل)

فَإِنْ تَفْتَدُونِي تَفْتَدُوا شَرَفَ الْعُلا * وَأَسْرَعَ عَوَّادٍ إِلَيْهَا مُعَوَّدِ**

وَإِنْ تَفْتَدُونِي تَفْتَدُوا لِعُلَاكُمُ * فَتًى غَيْرَ مَرْدُودِ اللِّسَانِ أَو الْيَدِ**

يُطَاعِنُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ * وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِالحُسَامِ الْمُهَنَّدِ**[2]

إن الأمر لا يحتمل التسويف أو التأخير، فإن حياته تساوي حياة بني حمدان بما حازته من شرف العرض، وافتداءه يعني افتداء ما بنته القبيلة من

---

١) الديوان، ص٩٧.

٢) الديوان، ص٩٨.

مفاخر العلا والمجد، وبقاءه في الأسر هو المعرة التي ستلاحق كل بني جلدته على مر الزمان، وإن مات هناك، فإن موته ليس موتا شخصيا فرديا كما يُعتقد؛ وإنما هو الذل والعار والخزي الذي سيلتصق بهم على مر التاريخ.

في أسره تسيطر عليه مخاوف ترك الدنيا وزينتها وأهلها، ويتملكه الهم والحزن والقلق على مصير صبيته وقومه، فيشرع في التفكير فيهم، يقول: (من مجزوء المتقارب)

لأيِّكُــــــــمُ أَذْكُـــــــــرُ؟ *** وفِـــــي أيِّكُــــــمْ أَفْكِــــــرُ؟
وكَـــمْ لِـــي عَلَـــى بَلْـــدَتِي *** بُكَـــــــاءٌ وَمُسْـــــــتَعْبَرُ
فِفِـــــي "حَلَـــبٍ" عُـــــدَّتِي *** وَعِــــــزِّيَ، وَالْمَفْخَـــــــرُ
وَفِـــي "مَنْـــبَجٍ"، مَـــنْ رِضَـــا *** هُ، أَنْفَـــــسُ مَـــــا أَذْخَـــرُ
وَمَــــــنْ حُبُّــــــهُ زُلْفَـــــةٌ *** بِهَــــا يُكْــــرَمُ الْمَحْشَــــرُ
وَأَصْــــــبِيةٌ كَـــــالفِرَاخِ *** أَكْبَـــــــرُهُمْ أَصْــــــغَرُ
وَقَـــــومٌ أَلِفْنَـــــــاهُمُ *** وَغُصْـــــنُ الصِّـــــبَا أَخْضَـــرُ
يُخَيَّـــــلُ لِـــــي أَمْـــــرُهُمْ *** كَـــــــأَنَّهُمُ حُضَّـــــــرُ
فَحُزْنِـــــي لا يَنْقَضِـــــي *** وَدَمْعِــــــي مَــــــا يَفْتُــــرُ
وَمَــــا هَـــــذِهِ أَدْمُعِـــــي *** وَلا ذَا الَّـــــذِي أَضْـــــمِرُ
وَلَكِـــــنْ أُدَارِي الـــــدُّمُوعَ *** وَأَسْـــــتُرُ مَــــا أَسْــــتُرُ
مَخَافَـــــةَ قَـــــولِ الوُشَـــــا *** ةِ: مِثْلُـــــكَ لَـــــا يَصْـــــبِرُ(١)

كان أبو فراس اجتماعيا بطبعه، يؤثر الصحاب ومخالطة الناس على الوحدة والعزلة، عاش حياة مرفهة منعمة بين قومه، فلما احتضـــنه الســـجن أسيرا عظم عليه الخطب وجلت عليه المصيبة، وكيف لا وهو الحر الأبـــي.

١) الديوان، ص١٦٦.

إن شعور الحرمان من الأهل والولد شعور مخيف، لاسيما وإن كان موعد التلاقي مجهولا، وسيّاف الموت قريب، وهموم الذكريات تحيط به من كل جهة، فلا تنفك الذاكرة تسترجع الصحاب، وتفكر في المصير المجهول، وفي كل شبر من الوطن جرت على أرضه لحظات سعيدة، وأخرى حزينة (ففي حلب عُدَّتِي... وفي منبج ما أذخر)، ويطارده الخوف على أولاده (وصبية كالفراخ)، ومصير قومه (وقوم ألفناهم)، وغيرها من جالبات الهموم ومولدات الخوف (فحزني لا ينقضي، ودمعي ما يفتر). إن الخوف من الموت ومفارقة الأحباب خطْب لا يقوى عليه إلا الصبر، و خوف لا يمكن إخفاؤه؛ يجر الخزن والحسرة خلفه.

لا يختلف خوف أبي فراس من الموت عن خوف غيره من الشعراء من حيث بواعثه؛ فهي واحدة، يقول ابن المعتز: (من الخفيف)

آهِ مِنْ سَفْرةٍ بِغَيرِ إيَابِ *** آهِ مِنْ حَسْرَةٍ عَلَى الأَحْبَابِ[1]

ويقول ديك الجن: (من الخفيف)

مَا المَنَايا إلا المَطايَا وَمَا فَرْ * رَقَ شَيٌ تَفريقَها الأحْبابَا**

ظَلَّ حَاديهمْ يَسُوقُ بِقَلبِي * ويُرى أنَّه يَسُوقُ الرِّكَابَا[2]**

ويقول أبو تمام: (مجزوء الكامل)

المَوتُ عِنْدِي والفِرَا * قُ كِلاهُمَا ما لا يُطَاقُ**

يَتَعَاونَانِ عَلَى النُّفُو * سِ فَذَا الحِمَامُ وذَا السِّيَاقُ**

لَو لَمْ يَكُنْ هَـذا كَذَا * مَا قِيلَ مَوْتٌ أو فِرَاقُ[3]**

١) ديوان بن المعتز، تحقيق ودراسة: محمد بديع شريف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م. ٣٨١/٢.

٢) ديوان ديك الجن، م.س، ص ٦٦، ٦٧.

٣) ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، شرح التبريزي، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧،٢/٢٥٠.

يعرف الإنسان بالضرورة أنه سيموت، لكنه لا يعلم متى، ولا أين، ولا كيف، يكون ذلك، ولعل هذا المجهول هو ما يبعث القلق، لكنه ليس بأقل رهبة من قلق فراق الأهل والولد والمال.

•الخوف من هجر الحبيبة:

يمثل الخوف من عزوف الحبيب وهجره مثيرا هاما من مثيرات الخوف في شعر أبي فراس الحمداني؛ فهو الشاعر العاشق للجمال، وليس كالجمال الأنثوي مثالا ينشده مرهفو الإحساس مثله، كما أنها محراب الجمال، ومعيار السعادة؛ إن أقبلت حاز الدنيا ببهجتها، وإن هجرت وأدبرت فقد الرغبة في كل شيء. ولذا فقربها وحبها يشكل عالما من السعادة النفسية ومؤنسا في وحشة الحياة الخارجية.

لقد بُلي أبو فراس بمحبوبة من طبعها الهجر والصد، وهو ما أحزنه وأثار مخاوفه، يقول: (من الطويل)

بِنَفْسِي مِنَ الغَادِينَ فِي الحَيِّ غَادَةٌ * هَوَايَ لَهَا ذَنْبٌ وَبَهْجَتُهَا عُذْرُ**
تَرُوغُ إِلَى الْوَاشِينَ فِيَّ وَإِنَّ لِي * لَأُذْنًا بِها عَنْ كُلِّ وَاشِيَةٍ وَقْرُ**
بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لأَنَّنِي * أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتِ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ**
وَحَارَبْتُ قَومِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ * وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكِ المَاءُ والخَمْرُ**
وَفَيْتُ وفِي بَعْضِ الوَفَاءِ مَذَلَّةٌ * لِآنِسَةٍ فِي الحَيِّ شِيمَتُها الغَدْرُ**
ومَا كَانَ لِلأَحْزَانِ لَوْلاكِ مَسْلَكٌ * إِلى القَلْبِ، لَكِنَّ الهَوَى لِلْبِلَى جِسْرُ**(١)

يجد المحب في حبيبه السكينة والسعادة، وينسى قوته وفروسيته في هواها، فيصير كالطفل المتعلق بالحنان والألفة، بيد أن الحال عند أبي فراس مختلف؛ فحبه مصدر للخوف والحزن، لقد تعلق بفتاة فاتنة في الحي كانت سببا في شقوته؛ تسمع أقوال الوشاة فيه، بينما هو يعطيهم أذنا صمّاء. لقد تمكن حبها من قلبه، فغدت كل دار ليست من أهلها قفر موحشة، وبلغ من شدة تعلقه بها أنه فضل هواها عن مؤانسة قومه وأهله، ولم ينصع لنصحهم

١) الديوان، ص١٦٣.

في هجرها وعزلها مع ما لهم من مكانة عزيزة لديه. لقد وفى إليها وتذلل لحبها وهو الفارس الأبي الذي تتطلع إليه العيون ويشار له بالبنان، بيد أنها لم تتنازل عن غدرها وصدها، فكانت مثيرا لمخاوفه، ومصدرا لمخاوفه، يقول: (من الطويل)

فَلا تُنْكِرِينِي يَابْنَةَ الْعَمِّ إِنَّهُ * لَيَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتِهِ: الْبَدْوُ والْحَضْرُ**
وَلا تُنْكِرِينِي إِنَّنِي غَيْرُ مُنْكَرٍ * إِذَا زَلَّتِ الأَقْدَامُ وَاسْتُنْزِلَ النَّصْرُ**[1]

إن للإحساس بالتجاهل والإنكار أبعاده النفسية على المحب، لاسيما إن كان فارسا شاعرا له مكانة كأبي فراس، ولذا نجده من باب الفخر يذكرها بنفسه –وهي عليمة– إنه ليعرف فضله البدو والحضر، وإنه المعروف لكل أحد إذا استصرخ القوم وزلت الأقدام واستنزل النضر، فكيف يُنكر فضله؟!!

وهو مع هذا الإنكار، لا ينفك من حبها، ولا يجدي لوم العاذلين في نسيانها، يقول: (من الكامل)

فَالْيَومَ، لَا دُنْيا تُدانِي فِي الْهَوى * صَبًّا، وَلَا "سُعْدَى" بِوَصْلٍ تُسْعِدُ**
وَلَقَدْ جَزِعْتُ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالأَسَى * مُذْ وَدَّعَتْ "هِنْ" وَبَانَتْ "مَهْدَدُ**
رَحَلُوا؛ فَأَخْلَقَ رَبْعُهُمْ، وَصَبَابَتِي، * أَبَدًا، لِإِخْلَاقِ الرُّبُوعِ تُجَدَّدُ**
يَاعَاذِلِي، كُفَّ الْمَلامَ، فَإِنَّهُ * لَا يُسْتَطَاعُ عَلَى الْفِرَاقِ تَجَلُّدُ**
إِنْ كانَ أَطْفَأَ نَارَ شَوْقِكَ فِي الْهَوى * مَاءٌ فَنَارُ صَبَابَتِي تَتَوَقَّدُ**
أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ دُمُوعِي وَازِعٌ * لَمَّا غَدَوْتَ عَلَى الْبُكَاءِ تُفَنِّدُ؟**
أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ صَبْرِي عَزَّنِي * لَمَّا جَفَانِي النَّاعِمَاتُ النَّهَّدُ**
أَفَهَلْ عَلَى فَيْضِ الْمَدَامِعِ مُنْجِدٌ؟ * أَمْ هَلْ عَلَى بُعْدِ الأَحِبَّةِ مُسْعِدُ؟**[2]

يمثل رحيل الحبيب رحيل الدنيا ببهجتها؛ لقد شفه الوجد، وبراه الكمد منذ رحلت وابتعدت، وتملكه الجزع والحزن على فراقها، فلا الصبر يجدي، ولا صروف الدهر تُنسِي.

---

١) الديوان، ص١٦٤.
٢) الديوان، ص٩٠-٩١.

إن الخوف من عزوف الحبيب يكمن وراءه الإحساس بعدم الرغبة وإدبار الشباب، وهو شعور يفقد معه المرء الرغبة في الحياة؛ فإقبال الغواني مصدر السعادة التي بها تقوى، وإدبارهن مصدر الحزن والخوف (أم هل على بعد الأحبة مسعد؟)

وجملة القول: إن مفهوم الخوف لدى أبي فراس الحمداني يختلف عن مفهومه الاصطلاحي؛ فلم نلمس أعراض الخوف المعروفة من تغيرات في الجسم، ولا هربا أو فرارا، وإنما استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المعتمد على التأمل أو توقع أي مظهر من المظاهر العديدة لمثيرات الخوف، وهو ما يفسر لنا منظور ثقافة الخوف في شعره؛ إذ لم يؤثر في شخصيته ولا اتزانه النفسي، فلم يلجأ إلى العزلة، ولم يتخذ من الخصام والفجور والانتقام ردا لفعل الخوف، بل كان حريصا على علاقاته الاجتماعية مع خصومه، وهو ما ينم عن شخصيته الباذخة، يقول: (من البسيط)

أَنَا الَّذِي لا يُصِيبُ الدَّهْرُ عِتْرَتَهُ * وَلا يَبِيْتُ عَلَى خَوْفٍ مُجَاوِرُهُ**
يُمْسِي وكُلُّ بلادٍ حَلَّها وَطَنٌ * وكُلُّ قَوْمٍ غَدَا فِيْهِمْ عَشَائِرُهُ**[١]

جاءت مثيرات الخوف في شعر أبي فراس الحمداني طبيعية، تمثلت في خوفه من غدر قومه وتجاهل أهله، ومن حسدهم، ومن العار الذي قد يلاحق الأبطال النبلاء مثله، ومن البقاء والموت أسيرا بعيدا عن وطنه وأهله، محروما من أقل المظاهر الجنائزية التي تليق بالفرسان الأمراء أمثاله، ومن هجر الحبيبة وعزوف الغواني. وهي مثيرات لا يمكن إدراجها ضمن مسمى الفوبيا؛ إذ يشترك فيها جميع أفراد الجنس البشري، ولا تخرج عن مسار الخوف الطبيعي.

١) الديوان، ص١٧٤.

المبحث الثاني: الحركة الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني

يعد النص خطابا موجها من المؤلف إلى المتلقي، وواسطة بين المُرسِل والمُرسَل إليه داخل المسار التوصيلي كما حدده "جاكبسون "Jakobson

وهو ما يعني صعوبة تشكل ملامح البحث عن الدلالة من القراءة الأولى، وإنما تتضافر في إنتاجها مجموعة من الفواعل النشطة داخل النص، والمقسمة على فواصل متفاوتة يقننها نظام اللغة الفنية؛ فـ "النص اللغوي – أي نص مهما كانت طبيعته– عبارة عن نظام من العلامات التي تمتد بينها علاقات مختلفة، وكلما غيرنا موقعها داخل النسق اللغوي تغيرت دلالتها"[1] ومما يسترعي انتباه القارئ أثناء تتبعه للدلالة هو كيفية انبثاقها على المستوى السردي الذي يقوم باستدراك سلسلة التغيرات والصور الخطابية التي تسجلها حركية تلك الفواعل داخل النص، ولذا سنسعى في هذا المبحث إلى تتبع حركة آلياتها، ومن ثم تحليل الشبكة الصورية المنتجة لها.

•التمظهر السطحي للدلالة:

تبدو دلالة الخوف منعدمة وشبه مستحيلة للوهلة الأولى في شعر أبي فراس؛ إذ تسطر سيرته في صدر الديوان قصة حياة بطل فارس أمير،

١) حسين خمري، نظرية النص –من بنية المعنى إلى سيمائية الدال–، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦٢.

خاض الحروب وأسر الأعداء، وسجل النصر تلو النصر، وهو ما ينفي عن شخصيته طابع الخوف بنوعيه الطبيعي والمرضي، حتى فخرياته تؤكد هذه الدلالة السطحية، يقول: (من الرجز)

لَا أَصْحَبُ الْخَوْفَ، وَلَا أُرَافِقُهُ
وَالْمَوْتُ حَتْمٌ، كُلُّ حَيٍّ ذَائِقُهْ
يَا خَائِفَ الْمَوْتِ وَأَنْتَ سَائِقُهْ
تَفُرُّ مِنْ شَـــيءٍ وَأَنْتَ ذَائِقُهْ
مَا أَنَا إِنْ رُمْتُ النَّجَاةَ سَابِقُهْ[١]

قد يبدو مصطلح الخوف غير موجود في طبائعه، ولا في معجمه الفكري، حتى الموت الذي يعد أقوى مثيرات الخوف لا يعطي دلالة الخوف لديه؛ فرد الفعل تجاهه غير طبيعي؛ إذ المتوقع أن يكون الفرار خوفا هو رد الفعل هنا، قال تعالى: "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم"[٢]، بيد أن أبا فراس أظهر الشجاعة في وجه الخوف، بل وجعلها رد فعل طبيعي؛ فإذا كان الموت حقيقة مكتوبة على كل حي، فلم الخوف منه والفرار أمامه؟!

•العمق الدلالي:

إذا كان التمظهر السطحي للدلالة تكشف حقيقته الحقول الدلالية، التي هي "قطاع متكامل من المادة اللغوية؛ يـــدلل علـــى المفهـــوم أو التصـــور أو الصورة الذهنية"[٣]، ويخص البحث من هذه الحقول، حقل الخوف؛ فتردده في الديوان ينم عن وجوده؛ إذ تكررت مادته أربعة عشر مـــرة صـــريحة، وسبع عشرة مرة بمعناها، من ذلك قوله: (من الوافر)

---

١) الديوان، ص٢٣١.

٢) سورة الجمعة، آية ٨.

٣) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٢م، ص٧٩.، وانظر: صلاح الدين صالح، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥، ص٦٣.

حَمَلْتُ عَلَى وُرُودِ الْمَوْتِ نَفْسِي * وَقُلْتُ لِعُصْبَتِي: "مُوتُوا كِرَامَا!"**
وَلَمْ أَبْذُلْ لِخَوْفِهِمُ مِجَـــنًّا * وَلَمْ أَلْبَسْ حِذَارَ الْمَــوْتِ لَامَا**[1]

وقوله –أيضا–: (من الكامل)

وَإِذَا قَصَدْتُ لِحَاجَةٍ، لَمْ يَثْنِنِي * خَوْفُ الرَّدَى، وتَصَرُّفُ الأَزْمَانِ**[2]

و يقول: (من الوافر)

لَقَدْ عَلِمَتْ سَرَاةُ الْحَيِّ أَنَّا * لَنَا الْجَبَلُ الْمُمَنَّعُ جَانِبَاهُ**
يَفِيءُ الرَّاغِبُونَ إِلى ذُرَاهُ * وَيَأْوِي الْخَائِفُونَ إِلى حِمَاهُ**[3]

رغم التوظيف النصي للفظة الخوف في سياق الفخر، فإن إشـــعاعها المعنوي يعكس في ذهن القارئ دلالة أخرى، تذهب إلى معرفة الشاعر بها، ومعايشته ذلك الإحساس؛ فالشاعر يعبر عما يشعر به ويحسه، ونقصد بهـــذا هنا الأداة المعبرة عن رد الفعل؛ فهي المسئول عن دور التخيل في الـــنص، وبسط المعنى المنشود، فـــ "التخيل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المتخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها، أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير رؤية إلى جهـــة مـــن الانبساط والانقباض"[4]، ومن مؤشرات وجود الخوف في ذهن أبي فـــراس، معانيه التي شاعت في شعره كأداة معبرة عن رد فعله تجاه مؤثرات الخوف، يقول: (من الخفيف)

وَدَّعُوا: خَشْيَةَ الرَّقِيبِ بِإيما * ء، فَوَدَّعْتُ خَشْيَةَ اللُّوَّامِ**
لَمْ أَبُحْ بِالْوَدَاعِ جَهْرًا وَلَكِنْ * كَانَ جَفْنِي فَمِي، وَدَمْعِي كَلامِي!**[5]

---

١) الديوان، ص٢٨٩.
٢) الديوان، ص٣٣٤.
٣) الديوان، ص٣٤٨.
٤) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ط تونس، ١٩٦٦م، ص٨٩.
٥) الديوان، ص٣٢٠.

وقوله: (من الكامل)

خَفِّضْ عَلَيْكَ! وَلَا تَبِتْ قَلِقَ الحَشَا * مِمَّا يَكُونُ، وَعَلَّهُ، وَعَسَاهُ**

فَالدَّهْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِمّا تَرَى * وَعَسَاكَ أَنْ تُكْفَى الَّذي تَخْشَاهُ**[١]

يتعدى اللفظ حاجزه المعجمي إلى عالم الدلالة، فيوقع في النفس أثرا معبرا عن معناه من خلال تأثيره النفسي في المتلقي الذي يستشعره؛ إذ تمثل حلقة التلقي بين المرسل والمرسل إليه "انتقالا بالصورة إلى داخل النفوس وواقع الخبايا في النفس المعتبرة"[٢]، وإذا كانت صورة الخوف حاضرة في شعر أبي فراس، فهي دلالة على حضورها في وجدانه، وهو ما نعكس على شعره، فلم يستطع الخلاص منها، سواء في صور فخرياته أو تعازيه نفسه الأبية، يقول: (من الطويل)

وَمَا نَالَ مِنِّي الأَسْرُ مَا تَرَيَانِهِ * وَلَكِنَّنِي دَامِي الجِرَاحِ عَلِيلُ**

جِرَاحٌ تَحَامَاهَا الأُسَاةُ، مَخُوفَةٌ * وَسُقْمَانِ: بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ**

وَأَسْرٌ أُقَاسِيهِ، وَلَيْلٌ نُجُومُهُ * أَرَى كُلَّ شَيءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ**[٣]

تكشف كثافة ألفاظ المعاناة في الأبيات (دامي، الجراح، عليل، جراح، مخوفة، سقمان، أسر، أقاسيه) عن دلالة الخوف لديه؛ إذ تجسد أدواته الشعرية أحاسيسه، وتشخص خواطره وأفكاره، وتكشف رؤيته الخاصة ومكنوناته الخفية.

وجملة القول: فإن الكشف عن دلالة الخوف في شعر أبي فراس لا تكفيه القراءة السطحية؛ فشخصيته كفارس أمير، وأشعاره في الفخر والحماسة، وغيرها من مظاهر السؤدد والسلطان، تعطي مدلولا يتنافى مع الخوف، بيد أن العمق الدلالي لألفاظ الخوف في شعره تظهر وجوده، وتعكس إحساسه به؛ فأدواته الشعرية تحمل شحنة عاطفية بالإحساس بالمعانة والألم الدفين؛ نتيجة تخوفه من مثيرات معلومة وأخرى مجهولة، يُلمّح بها السياق وقليلا ما يُصرّح.

---

١) الديوان، ص٣٤٩.

٢) محمد حسين الصغير، مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية، بغداد، ١٩٩٦م، ص٩٦.

٣) الديوان، ص٢٥٢.

الخاتمة

نخرج من هذا البحث بعدة نتائج، هي:

١-يمثل الخوف فعلا طبيعيا في سلوك الكائن الحي عامة والإنسان خاصة× إذ يقصد بالخوف حالة الفزع التي تنتاب الكائن الحي جرّاء تعرضه لمثير من مثيرات الخوف المتعددة، سواء كان هذا المثير مجهولا أو معلوما.

٢-يختلف مفهوم الخوف باختلاف مثيراته؛ إذ هو حالة انفعالية داخلية أو خارجية يشعر بها الفرد في بعض المواقف، ويسلك فيها سلوكا يحاول به الابتعاد عن مصدر الضرر، وهو ما يعني أن الخوف كفعل ينتج عنه رد فعل يحدث تغيرات واسعة المدى في الجسم، ويتطلب أداة معبرة عنه، كالفرار أو الهرب وقد تكون المواجهة أحيانا.

٣-ينقسم الخوف إلى طبيعي ومرضي؛ ويستقي من مصادر ثلاثة، تتمثل في الخوف من المجهول، وفي الخوف من المعلوم الذي تبين بالضرورة، وفي الخوف من شيء ارتبط بالضرر. ويعد الخوف الطبيعي عاملا مشتركا بين الكائنات الحية، رغم اختلاف طرق الاستجابة له من كائن إلى آخر، ورغم اختلاف المواقف والمثيرات التي تهدده، ومثاله: الخوف من الموت، أو الخوف من الفشل، أو زوال النعم، بينما يعد الخوف المرضي أو الفوبيا حالة متفاوتة من شخص إلى آخر، تؤثر في انفعالاته وسلوكه، وتنعكس على إدراكه للواقع وعزلته عن المجتمع، ومثاله: الخوف من المرتفعات أو الظلام أو النار.

٤-تختلف ثقافة الخوف من شخص إلى آخر؛ إذ يتمثل مناخ الخوف في المثيرات التي يبثها بعض أفراد المجتمع في نفوس العامة لتحقيق أهدافهم، أو تلك التي تثيرها النفس البشرية داخلها نتيجة القلق من مثير ما.

٥-تتمحور ثقافة الخوف في شعر أبي فراس الحمداني في محورين رئيسين، أحدهما خارجي تمثله السلطة القومية ممثلة في بني قومه؛ إذ يشكل حسدهم شبحا مخيفا يطارده، كما يتجسد غدرهم غولا يتربص به. وتمثله -كذلك- السلطة السياسية متمثلة في خؤولته وعمومته؛ إذ الأسر في سجن أخواله الروم من ناحية، وتجاهل سيف الدولة مطلبه، وتوانيه في فك أسره، وتخوفه من بقائه وموته أسيرا نائيا عن وطنه وأهله من ناحية أخرى. بينما تمثل السلطة النفسية المحور الداخلي؛ فالخوف من هجر الحبيبة، وإعراض الغواني عنه، يبعث في نفسه الخوف من عدم الرغبة فيه، كما يهدده العار الذي يلاحق مجد كل ذي شرف ومكانة.

٦- تتشكل دلالة الخوف في شعر أبي فراس الحمداني من خمسة مثيرات طبيعية، هي، الخوف من الحسد، والخوف من غدر قومه، والخوف من العار الذي قد يلاحقه، والخوف من البقاء في الأسر حتى الموت بعيدا عن أهله ووطنه، والخوف من هجر الحبيبة وتنكرها.

٧-عاني أبو فراس الحمداني من حسد قومه وغدرهم، وتنكرهم له بعد أسره، وتشكلت لديه ثقافة الخوف من عدم الثقة في كل أحد، خاصة المقربين من عشيرته، وتولد لديه إحساس الخوف منهم، لاسيما بعد تخاذل سيف الدولة في فك أسره، وهو ابن عمه وفارس جيشه.

٨-حاز أبو فراس الحمداني المجد والإمارة والفروسية، وتوج بتاج الشعر، فسمت مكانته وبذخت منزله، فطارده الخوف من العار، ودفعه الحرص على هذا الصرح قويا شامخا تحمل الصعاب، والنزول على غير رغبته أحانا، وكان هذا الخوف مصاحبا لخوف البقاء والموت في الأسر وحيدا مجردا من أقل المظاهر الجنائزية التي تصاحب الأمراء الفرسان إلى قبورهم.

٩-تمثل رغبة المحبوبة جزءا كبيرا في إحساس المرء بوجوده وعلو منزلته، وكذلك رغبة الغواني والتفافهن، فإذا انصرفن عن المرء تولد لديه إحساس الخوف من الوحدة النفسية وانقضاء الشباب، وهو ما استشعره أبو فراس في هجر حبيبته وإنكارها حبه.

١٠-تبدو التشكلات الدلالية للخوف في شعر أبي فراس الحمداني خفية؛ إذ لا تظهر من القراءة الأولى، وإنما تحتاج إلى إمعان النظر في البنية العميقة للنص، وتتبع صورة الخوف في العلاقات اللغوية داخله، فالصورة الكلية تعكس منظر الفارس الشجاع الجسور الذي لا يهاب الأعداء ولا يخشى الردى، بيد أن الصور الجزئية تعكس الحالة النفسية التي تعاني الخوف وتتلاشى مواجهة مثيراته.

المصادر والمراجع:

-المصادر:

- القرآن الكريم.
- أبو فراس الحمداني، ديوانه، شرح الدكتور خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م.
- أبو تمام: ديوانه، تحقيق: محمد عبده عزام، شرح التبريزي، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ط تونس، ١٩٦٦م.
- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، يتخريج الإمام الحافظ العراقي، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ديك الجن الحمصي، ديوانه، جمع وتحقيق ودراسة: مظهر الحجي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.
- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١.
- ابن الرومي، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م.
- سعيد بن حميد: ديوانه، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧م.
- علي بن الجهم: ديوانه، تحقيق: خليل مردم، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٦م.
- محمد بن حازم الباهلي: ديوانه، جمع وتحقيق وشرح: مناور محمد الطويل، دار الجيل، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ابن المعتز: ديوانه، تحقيق ودراسة: محمد بديع شريف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

• ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت.

-المراجع:

•إبراهيم وجيه محمود: مدخل إلى علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

•أحمد محمد عبدالخالق: أسس علم النفس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١٩٨٩م.

•أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

•أسعد رزق: موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧.

•حسين خمري: نظرية النص -من بنية المعنى إلى سيمائية الدال-، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧.

•صلاح الدين صالح: الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.

•عبدالعزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، النهضة المصرية، القاهرة.

•عبدالقادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

•محمد حسين الصغير، مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية، بغداد، ١٩٩٦م.

-المجلات والدوريات:

•أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع١١١، مارس١٩٨٧م.

سابعاً :
البلاغة والنقد